

## الحياة الاقتصادية في مدينة مصراتة من خلال أدب الرحلات المغربية رحلة الحشائشي ( 1895 - 1897م) أنموذجاً .

أ.فاطمة محمد الرعيز.\* أ.فاطمة إبراهيم طرينة.\*

\*عضو هيئة تدريس كلية الآداب- جامعة مصراتة. قسم التاريخ .

### المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد،،،

كانت الرحلات مجالاً رحباً، ينطوي على العديد من العلاقات الإنسانية، إذ كانت حياة الإنسان منذ ولادته في ترحال دائم، فرضته عليه ظروف الحياة والتشكيل الاجتماعي؛ لتتسع الرحلات على مر الأزمنة، وخاصة بعد انتشار الإسلام واتساع حركة الفتوحات الإسلامية، وتعددت أنواعها وأسبابها، وغدت الرحلات مظهراً من مظاهر الحركة العلمية والثقافية، فقد قدم الرحالة على اختلاف انتماءاتهم مساهمات واضحة في حفظ التراث الإسلامي، ورصد أحوال العباد، ووصفوا بعين بصيرة نيرة ما زاروه من البلدان والأصقاع، بذلك نقلوا لنا جوانب مضيئة مشرقة تتصف بالدقة أحيانا بالشك عن بلدان المشرق والمغرب.

وقد قام الرحالة المغربي بدور كبير في خدمة العلم، والتعريف بالملاح الإنسانية والثقافية والاجتماعية في الأماكن التي حلوا بها، وتعتبر الرحلات مادة خصبة للدراسة غنية بمعلومات تاريخية وجغرافية وأدبية؛ لأنها بمثابة صورة حية ومرآة عاكسة لمختلف أوجه النهضة والحضارة والانفتاح، فضلاً عن دورها في إحداث تفاعل وتداخل بين العناصر البشرية والثقافية.

ومما لاشك فيه أن منطقة الشمال الأفريقي، قد حظيت باهتمام الرحالة المغربية، ذلك لأن معظم رحلاتهم التي توجهت لزيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضتي الحج والعمرة، ما لبث أن سلك الرحالة فيها الأراضي الليبية، واستراحوا في قوافلهم في محطاتها ووحداتها، ولذلك كان من الطبيعي أن تشمل رحلاتهم ويومياتهم ومشاهداتهم وصفاً للأراضي والمدن الليبية عن قرب.

ومن تلك الرحلات رحلة الحشائشي موضوع الدراسة (1895-1897م) التي تعد إحدى رحلات الحجج المغربية، والتي حملت في ثناياها بعض الأخبار عن مدينة مصراتة في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، أثناء قدوم مؤلفها ضمن قوافل الحجاج الخارجة من بلاد المغرب إلى المشرق لزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وكان من الطبيعي أن تتضمن العديد من المعلومات التي كشفت النقاب عن جوانب مهمة من تاريخ مدينة مصراتة خلال فترة الرحلة.

وتكمن أهمية الدراسة في تسليط الضوء على مدينة مصراتة من خلال قراءة النصوص المصدرية، التي تضمنتها الرحلة؛ لكشف أبعاد الحياة الحضارية في المدينة، وخاصة الاقتصادية منها، وانعكاسات ذلك على دورها في إنعاش الحياة الاقتصادية.

وتهدف هذه الدراسة لتأريخ الحياة الاقتصادية داخل مدينة مصراتة خلال القرن التاسع عشر الميلادي من خلال رحلة الحشائشي، فقد كان للمدينة مكانة مميزة في نفوس الرحالة المغربية، الذين ما لبثوا أن أقاموا فيها في ضيافة الزاوية الزروقية، بذلك أمدتنا رحلاتهم وخاصة رحلة الحشائشي بمعلومات وإشارات عن مختلف الجوانب الاقتصادية، والوقوف عن كتب على حال أهلها، ومبانيها، وأنظمتها، ومعاملاتها، وتعاملاتها؛ لتكون شاهداً على تاريخ المدينة.

وتقوم الدراسة على فرضية :

رحلة الحشائشي أسهمت في إعطاء صورة واضحة عن التطور الحادث في مجريات الحياة الاقتصادية داخل مدينة مصراتة خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

وستنتهج الدراسة منهجاً تاريخياً يعتمد على النصوص التاريخية المدونة في رحلة الحشائشي عن مدينة مصراتة، في محاولة لدراستها واستنطاقها للوقوف على حقيقة الأوضاع الاقتصادية فيها، إضافة إلى الاستعانة ببعض المصادر والمراجع التاريخية التي لها علاقة بموضوع الدراسة للوصول إلى نتائج مقنعة ورسينة.

ولكن قيل الحديث عن الحياة الاقتصادية في مدينة مصراتة من خلال الرحلة الحشائشية، يجذر بنا التطرق إلى معرفة معنى الرحلة وماهيتها وأنواعها.

### أولاً: تعريف الرحلة:

تحتل الرحلة مكانة مهمة كمصدر للكتابة التاريخية والجغرافية، وتحمل بين ثنايا صفحاتها مادة علمية قيمة، تناولت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ونستقي منها معلومات تؤكد المشاهدات، الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع، كما تسهم في توسيع الأفاق والمدارك؛ بسبب اتساع دائرة اتصالها بالبلدان والأقوام، بذلك تكون بمثابة مرآة تعكس صورة المجتمعات والشعوب في فترات سابقة؛ لدراساتها والوقوف عن كثب على أنظمتهم الحياتية المختلفة.

#### 1. في اللغة:

مأخوذة من رحل، ويقال رحل الرجل إذا سار، وهي من يرحل رحلاً، ورحيلاً، ورحل من بلدأً خرج منها<sup>(1)</sup>، والترحال والارتحال أصل واحد مأخوذ من رحل، الرء والحاء واللام تدل على المضي في السفر<sup>(2)</sup>

#### 2. في الاصطلاح:

هي الخروج من الوطن لتحقيق هدف أو بلوغ غاية<sup>(3)</sup>، فعندما تنقل قبيلة أو جماعة أو أمة أو فرد من مكان إلى آخر لمقاصد معينة وأسباب مختلفة<sup>(4)</sup>. قد تكون تطوعاً أو تكليفاً<sup>(5)</sup>، وتعرف حركتهم وانتقالهم وتنقلهم باسم الرحلة أو السفر<sup>(6)</sup>.

ونظراً لأهمية الرحلة في حياة العرب، فقد درج المؤرخون العرب على استخدام عبارة أدب الرحلات، للإشارة إلى كتابات الرحالة العرب والأجانب التي يصفون فيها البلاد التي مروا بها، ويذكرون أقوامها، وأهم الأحداث أثناء تواجدهم فيها، ودوافع رحلاتهم، مع إعطاء آرائهم وانطباعاتهم على كل ما شاهدوه أو سمعوه<sup>(7)</sup>، و نظراً لارتقاء الوصف عند بعضهم فضلاً عن الدقة في التصوير، وعلاوة على العرض بأسلوب قصصي سلس، الأمر الذي نتج عنه أن دخلت أدبيات الرحلة ضمن فنون الأدب العربي، وأصبح قراءة هذا النوع من الأدب مصدراً لرصد مختلف جوانب الحياة اليومية في مدينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة<sup>(8)</sup>.

### ثانياً: ماهية الرحلة وأنواعها:

فطر الإنسان بطبعه على حب السفر والرحلات منذ فجر نشأته، فقد أوردت لنا كتب التاريخ والجغرافيا أنباء عدة عن تنقلاته التي زار خلالها بقاع وأقاليم عدة، وأصقاع بعيدة طلباً للمعرفة والرزق والتجارة<sup>(9)</sup>.

واهتم العرب بالرحلات منذ وقت مبكر، فكانت لقريش في جاهليتها رحلتان ورد ذكرهما في القرآن الكريم بقوله تعالى: { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) }<sup>(10)</sup>

منذ القرن الثالث الهجري كثرت المؤلفات التي تصف حال الشعوب وتقاليدها وعقائدها، كما وصفوا حال البلاد؛ أقاليمها وطرقها، ودونت على شكل مذكرات تضمنت كل ما شاهدوه ولاحظوه<sup>(11)</sup>، وبلغ بعضهم من الدقة بأن سجل ما رأى ونقد ما سمع، فجمعوا لنا معلومات وآراء قد نقف من بعضها موقف الإعجاب و الانبهار، و البعض الآخر موقف الشك والنقد<sup>(12)</sup>.

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تح: محمد حسب الله، هاشم الشاذلي، ج3، دار المعارف، الإسكندرية، 1997م، ص1711.

(2) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عيد السلام هارون، ج2، دار الفكر، (د.ت)، ص497.

(3) صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ط2، دار المعارف، الإسكندرية، 1999، ص497.

(4) بطرس البستاني، دار المعارف، مج8، مؤسسة مطبوعاتي، طهران، (د.ت)، ص564.

(5) صلاح الدين الشامي، المرجع السابق، ص11-12.

(6) يُنظر، بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1977، ص368.

(7) حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، 1989م، ص7-8.

(8) نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية (حتى نهاية القرن 9هـ)، تق: صلاح جرار، دار المأمون، عمان، 2008م، ص14.

(9) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، 1981م، ص14.

(10) سورة قريش، الآية (1-2).

(11) زكي محمد حسن، مرجع سابق، ص5-6.

(12) حسين محمد فهيم، مرجع سابق، ص12؛ حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1983، ص6.

واختلفت الرحلات، وتعددت أنواعها وأغراضها فمنها العلمية، والتجارية، والسياسية(السفارات)، والدينية، ومنهم من زاد في تقسيمها إلى غير ذلك<sup>(1)</sup>.

**أ. الرحلة العلمية:** تعتبر من أهم الرحلات وأعظمها ثراء، لأن أصحابها قاموا بها لأجل العلم وخدمة له، ولجمع المعلومات والتأكد منها من منابعها الأصلية وقد أشار ابن خلدون إلى أهميتها بقوله: "الرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب فوائد الكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"<sup>(2)</sup>.

وقد ذكرت لنا كتب التاريخ الإسلامي، أن عدداً من الصحابة والتابعين رحلوا في طلب الحديث النبوي وتفسير بعض من آيات القرآن الكريم لمسافات بعيدة وأقطار عديدة، وذكر ابن سعيد في "طبقاته" أن سعيد بن المسيب<sup>(3)</sup> كان يشد الرحال و يسافر لعدة أيام وليالي في طلب الحديث الواحد؛ وكذلك فعل أبو الدرداء<sup>(4)</sup> في طلب طلب تفسير آية من القرآن الكريم بقوله: "لو أعيتني آية من كتاب فلم أجد أحد يفتحها عليّ إلا رجل بربك الغماد<sup>(5)</sup> لرحلت إليه"<sup>(6)</sup>.

**ب. الرحلة السياسية:** كانت أشبه بالسفارات؛ وترسل إلى البلدان المجاورة نتيجة لظروف سياسية معينة، من أشهرها رحلة ابن فضلان<sup>(7)</sup>، والتي بعثها الخليفة المقتدر بالله (309هـ/921م) إلى ملك البلغار، وكان ابن فضلان أحد أعضائها، حيث وصف بلاد البلغار والروس والخرز بوصف دقيق، ودون فيها ملاحظاته ومشاهداته عن الآخر، رغم قصرها وإيجازها، وكذلك فعل ملوك الدولة السعدية<sup>(8)</sup> في القرن السادس عشر الميلادي، حيث أرسلوا مندوبين عنهم إلى البلدان المجاورة لهم<sup>(9)</sup>.

**ج. الرحلة التجارية:** وكان التجار فيها ينتقلون بين الأقطار المختلفة، متبعين المسالك البرية والبحرية؛ طلباً للرزق وتطبيقاً لتعاليم القرآن الكريم لقوله تعالى: { فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }<sup>(10)</sup> ومن أشهر هؤلاء الرحالة ياقوت الحموي<sup>(11)</sup> صاحب كتاب (معجم البلدان).

**د. الرحلة الدينية:** كانت من أكثر الرحلات شيوعاً وانتشاراً، وكان الهدف منها أداء فريضة الحج والعمرة، فضلاً عن زيارة الأماكن المقدسة، فالحجاج ينقلون أخبار تلك البلاد وما شاهدوه وهم في طريقهم إليها عند رجوعهم منها، ومن أشهرها رحلة العبدري<sup>(12)</sup>، وابن بطوطة<sup>(1)</sup> في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

(1) للمزيد يُنظر: تقسيم الرحلات عند المكناسي، محمد بن عثمان، الإكسبر في افتكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي، الرباط، 1965، المقدمة من ص: ر.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص 598.

(3) ولد سنة (13هـ/94م) وهو أحد الفقهاء السبعة في المدينة المنورة، وكان يعيش على تجارة الزيت، يجمع بين الحديث والفقهاء والورع، وكان أحفظ الناس بأحكام عمر بن الخطاب، يُنظر: ابن سعد، محمد بن سعد الهاشمي، الطبقات الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص89.

(4) هو عويمر بن زيد الخزرجي، كان آخر أهله إسلاماً، وشهد مع الرسول ﷺ غزوة أحد، وقال عنه حكيم أممي عويمر هذا، تولى القضاء القضاء في خلافة عثمان بن عثمان على دمشق، وتوفي سنة 31هـ وقيل بعدها، يُنظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، دار الفكر، (د.م)، (د.ت)، ص54-55.

(5) موقع وراء مكة يبعد عنها خمس ليال مما يلي البحر قبل بلد اليمن، الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص86.

(6) الخطيب البغدادي، أحمد بن محمد، الرحلة في طلب الحديث، تح: نور الدين عتر، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1975م، ص195.

(7) هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين، وتمكن من تحقيق الانتصار على الدولة الطولونية وأعاد مصر للخلافة العباسية(292هـ/904م)، يُنظر: زكي محمد حسن، المرجع السابق، ص26.

(8) نشأت في بلاد المغرب الأقصى، ويدعي مؤسسها انتسابهم للنسل العلوي محمد النفس الزكية، ودام حكمهم للمغرب من (916-1069هـ/1510-1658م) ورفعت راية الجهاد ضد الوجود البرتغالي، وكانت لهم عدة سفارات ومراسلات معهم؛ ونجحوا في تحقيق انتصار حاسم عليهم في معركة وادي المخازن (986هـ/1578م). يُنظر: عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، جمعية المؤرخين المغربية، الرباط، 2006، ص40، ص105.

(9) مولاي بالحيمسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ط2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص10.

(10) سورة الجمعة، الآية (10).

(11) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، لا يعرف له تاريخ مولد، فقد حمل إلى بغداد بعد أسرته في بلاد الروم، وبيع فيها فاشتره تاجر أسمه عسكر الحموي، فنسب إليه وقيل له ياقوت، للمزيد يُنظر: ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، تح: فريد الجندي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص12.

(12) هو محمد بن محمد بن علي الحاجي، المشهور بالعبدري، نسبه إلى عبد الدار، وهي قبيلة من جنوب المغرب الأقصى، اشتهر بحب العلم والمعرفة، وكان واسع الحفظ ويقول الشعر، كتب رحلته عند أدائه فريضة الحج (668هـ/1289م)، يُنظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت)، ص401.

وقد أكد الغزالي على أهمية الرحلات وأنواعها بقوله: "السفر قد يكون لغرض دنيوي... أو ديني إما علم وإما عمل، والعلم إما علم في العلوم الدينية، وإما علم بالأخلاق... إما علم بآيات الله وعجائبه في الأرض، والعمل إما عبادة وإما زيارة، والعبادة هو الحج والعمرة... والزيارة لمكة والمدينة"<sup>(2)</sup>.

### ثالثاً: الرحلة وأهميتها:

حظيت منطقة الشمال الأفريقي، وبالأخص ليبيا باهتمام العديد من الرحالة وخاصة المغاربة، فلا يكاد يمر رحالة مغربي بالمدن الليبية، إلا وقد دَوّن مشاهداته وملاحظاته عن جل هذه المدن الليبية، وخاصة مدينة مصراتة من نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كافة<sup>(3)</sup>. وهنا نتساءل. عن سبب اهتمام الرحالة المغاربة بالمدن الليبية بصورة عامة، ومصراتة بشكل خاص. وقد يكون السبب راجع إلى:

- اهتمامهم بالرحلات الدينية بصورة كبيرة لأداء فريضة الحج والعمرة وزيارة مكة المكرمة<sup>(4)</sup>.

- لولعهم بالمغامرة والتجوال ولبعد بلادهم عن بلاد المشرق والحجاز، مما يتوجب عليهم المرور بالمدن الليبية الساحلية وهم في طريقهم لأداء مناسك الحج والعمرة.

- كون مدينة مصراتة كانت ملتقى قوافل الحجيج العابرين إلى مكة المكرمة والقادمين من بلاد المغرب الإسلامي.

### 1. التعريف بالمؤلف:

محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، ولد في تونس (1271-1330هـ/1855-1912م) مؤرخ ورحالة، فضلاً عن كونه أديباً وشاعراً، نشأ في بيت علمي منذ صغره، فجدّه محمد بن قاسم تولى القضاء في عهد الأسرة الحسينية<sup>(5)</sup>، والده أحد شيوخ جامع الزيتونة، واتجه الحشائشي منذ نعومة أظفاره إلى تعلم القرآن الكريم وحفظه على يد مشايخ وأعلام جامع الزيتونة ثم تطوع للتدريس في جامع الزيتونة، وتولى خطة العدالة (التوثيق) فيه سنة 1876م<sup>(6)</sup>.

وعُرِف عن الحشائشي قوة الذاكرة، وسعة الحفظ، وغازرة الاطلاع، فضلاً عن محبته للتجوال والترحال، فجال داخل البلاد منتقلاً بين مدنها وبواديها، ودَوّن مشاهدته وانطباعاته في قوالب شعرية أو نثرية، نشرت في الصحف والمجلات<sup>(7)</sup>.

### 2. التعريف بالرحلة:

بدأ الحشائش يرحلته إلى ليبيا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي (1895-1897م)، وكثرت الأقاويل حول دوافع رحلاته ومصادر تمويلها فذكر بعضهم أن بداية الانطلاق كانت بتمويل فرنسي<sup>(8)</sup>، باقتراح من السياسي الفرنسي المركزي ديموراس Marqus de mores سنة 1895م، حيث ترافقت مع اضمحلال الحكومة العثمانية في أواخر أيامها، والذي شهد تزايد الصراع بين إيطاليا وفرنسا على مناطق النفوذ في الصحراء<sup>(9)</sup>، ولقد دامت هذه الرحلة لما يقارب السنة جاب خلالها الحشائشي المدن والقرى والصحاري مدوناً تاريخ البلاد وتطورها، ومظاهر النشاط الاقتصادي فيها من زراعة، وصناعة، وتجارة، كما اهتم بالحياة الثقافية بذكره لأهم المساجد والمدارس والمعاهد، فضلاً عن ذكره لأهل العلم والزهاد والعباد فيها<sup>(10)</sup>.

(1) هو أبو عبدالله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (703 - 779هـ / 1304-1374م) تنسب أسرته إلى قبيلة لواتة، هو رحالة ومؤرخ، ولد ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى، وطاف مختلف البلاد، واتصل بالملوك والأمراء، ولا نعرف من أحداث حياته إلا ما دونه عنه ابن جزي الكلبي (كاتب الرحلة): يُنظر، ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار)، تح: محمد العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، 1987، ص 14.

(2) الغزالي، محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج6، دار المناهج، السعودية، 2011م، ص1080.

(3) يُنظر: رجب نصير الأبيض، طرابلس الغرب في كتابات الرحالة (خلال القرن التاسع عشر الميلادي)، المركز الوطني للمحفوظات، طرابلس، 2009م، ص 24 - 25.

(4) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962م، ص167.

(5) الحشائشي، محمد بن عثمان، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب (رحلة الحشائشي إلى ليبيا)، تح: علي مصطفى المصراطي، دار لبنان، بيروت، 1965م، ص17.

(6) نقولا زيادة، "الحشائشي ورحلته إلى ليبيا"، العربي، العدد 168، نوفمبر، 1972، ص70.

(7) خير الدين الزركلي، الإعلام، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، 1988، ص263.

(8) رجب نصير الأبيض، مرجع سابق، ص81.

(9) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص144.

(10) الحشائشي، مصدر سابق، ص8.

ولقد وجد لهذه الرحلة نسختان، كما ذكر علي مصطفى المصراطي في مقدمة الرحلة الموسومة ب (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب) أو (النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية)، حيث وضح أنه تحصل على نسختين أحدهما كانت في دار الكتب المصرية بالقاهرة، والأخرى بمكتبة بلدية الإسكندرية، والنسخة تحتوي على 276 صفحة من الحجم الكبير، ويوجد بها فهرس مطول بلغ عدد صفحاته 11 صفحة<sup>(1)</sup>.

تميز الحشائشي بدقة الملاحظة، حيث سجل كل ما شاهده عن أهل البلاد وانطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم، فجاءت رحلته جامعة للعديد من المعلومات والحقائق الخاصة بحركة الإصلاح السنوسية ودورها في الحياة العلمية، فضلاً عن إسهابه في وصف سرت وقبائلها، وكذلك فزان وخاصة قبائل الطوارق<sup>(2)</sup>.

وقد اختلفت أسباب قيام الحشائشي بهذه الرحلة، فذكر في مقدمة رحلته أنها كانت بناء على طلب "بعض الأحابب والأصدقاء النجباء الألباء من أهل العلم والأدب أن يحزر لهم كتابة مفيدة فيما يتعلق بتاريخ طرابلس الغرب"<sup>(3)</sup> في حين نوه البعض أنه حظي بدعم من المركيز مواراس الذي شجعه على القيام بها وانفق عليها، أملاً في تحقيق حلمه بإنشاء ولاية في الجنوب التونسي، بالتعاون مع زعيم الحركة السنوسية المهدي السنوسي، لتكون محطة للتجارة عبر الصحراء<sup>(4)</sup>.

وفق ذلك نستطيع القول أن مواراس ربما كان يهدف من وراء تكليف الحشائشي بهذه الرحلة تحقيق أمرين هما:

- تحويل حركة القوافل التجارية عبر الصحراء للمغرب الخاضع للسيادة الفرنسية.

- قطع الطريق على انجلترا ومنعها من الدخول لليبيا.

### 3. خط سير الرحلة:

جرت عادة الرحالة عند قيامهم بتدوين مذكراتهم أو يومياتهم أو رحلاتهم، أن تبدأ بتدوين تاريخ خروجهم من أوطانهم، وكل ما يتعلق بشخصياتهم، كما يكتبون عن الأحوال التي أحاطت بسفرهم، ويثبتون كل ما يقع لهم من حوادث أثناء غيابهم، وكذلك كل ما لاقوه من صعوبات خلال رحلاتهم، فضلاً عن وصفهم لكل ما عاينوه من مظاهر الحضارة بمختلف أوجهها في كل بلد طرقوه<sup>(5)</sup>. وبذلك يرسمون لنا خطوطاً واضحة عن مسار رحلاتهم منذ انطلاقها حتى رجوعهم إلى أوطانهم<sup>(6)</sup>.

ولكن هنا من الصعب تحديد خط سير رحلة الحشائشي، وذلك لأن صاحبها لم يرقم بكتابتها وتدوينها أثناء قيامه بها، إنما دونها عند رجوعه لبلاده، والدليل عدم الانتظام في وصف البلد التي زارها وشاهدها بشكل متسلسل، فنجد أحياناً " يذكر المدن الساحلية ويصفها ويسجل عادات أهلها وطبائعهم ثم يصف مدن الجنوب الليبي ويذكر أهم قبائلها، ليعود مرة أخرى إلى ذكر مدن الساحل والشق الشرقي وهكذا"<sup>(7)</sup>.

وبناء على ما تقدم نستطيع رسم صورة غير واضحة عن حركته، حيث إنه نزل في بنغازي في 19 مايو 1896م، ثم توجه إلى الكفرة بعد مكوثه فيها لمدة شهر تقريباً<sup>(8)</sup>، ليلتقي بعد ذلك بالمهدي السنوسي زعيم الحركة السنوسية في واحة الكفرة، وتوجه بعد ذلك إلى مرزق وبقي فيها من اليوم الخامس إلى اليوم العاشر من شهر سبتمبر، ولم يذهب إلى مدينة غات رغم ما دونه عنها من مشاهدات<sup>(9)</sup>، ورجع إلى طرابلس عن طريق البحر بعد بعد نزوله في مصراتة في 18 فبراير 1897م، ليبدأ في تدوين رحلته بعد رجوعه إلى بلدته في شهر مارس 1897م<sup>(10)</sup>.

(1) نفسه، ص9.

(2) يُنظر: رجب نصير الأبيض، المرجع السابق، ص80.

(3) الحشائشي، المصدر السابق، ص12.

(4) خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج6، ص263.

(5) التجاني، عبد الله بن محمد، رحلة التجاني، تق: حسن عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص4؛ نوال الشوابكة، مرجع سابق، ص19.

(6) حسن محمود حسين، مرجع سابق، ص19، حسين محمد فهم، مرجع سابق، ص94.

(7) الحشائشي، مصدر سابق، ص15.

(8) محمد محفوظ، مرجع لسابق، ص146.

(9) الحشائشي، المصدر السابق، ص79، ص158.

(10) محمد محفوظ، المرجع السابق، ص146.

## رابعاً: مدينة مصراتة من خلال رحلة الحشائشي:

ذكرها الحشائشي باسم "مسراته"<sup>(1)</sup>، وجعلها من أعمال طرابلس ويفصلها عن البحر اثني عشر كيلومتر، وهي "بلد عظيم، هواؤه جيد للغاية وماؤه طيب وأراضيه خصبة"<sup>(2)</sup>، تحف بها بساتين النخيل "فلكل واحد من أهل البلاد بستان يخصه"<sup>(3)</sup>، وبذلك فإن الحشائشي يخالف ما ذهب إليه العبدري في وصفه لمدينة مصراتة، عند زيارته لها وجعل الغالب على أراضيها "سباخ تدهش الناظر... ومياه تجلب الأسقام"<sup>(4)</sup>. وقد انتقد الرحالة الإسحاقي العبدري فيما ذهب إليه في هذا الوصف وخالفه وطلب منه "لإنابة إلى الله والاستغفار"<sup>(5)</sup> على ما دونه دونه في حق هذه المدينة والتي ذكرها في رحلته بأنها: "عامرة، بها نخيل كثير ومزارع واسعة"<sup>(6)</sup> وهذا يتلاءم مع ما ذكره الحشائشي في وصف أراضيها وكثرة خيراتها.

أما من الناحية العمرانية فذكر الحشائشي أن مبانيها منفصلة عن بعضها البعض، كما وضح التطور الحادث في أنظمة البناء فيها، فهي لم تبني من اللبن والطين، إنما بالحجر والأجر والجير، مما جعل البناء محكماً ويغلب عليه طابع العمارة الرومانية<sup>(7)</sup>، فنجد العبدري يصف روعة البناء فيها أيضاً بقوله: " ذو قرى ظاهرة، ومناظر عند ظهورها باهرة، تخيل الحسن إذا نظرت وتحيله إذا اعتبرت"<sup>(8)</sup>.

ونجد الحشائشي يصف أهل مدينة مصراتة بحسن المعيشة، والرغد والرفاهية في العيش<sup>(9)</sup>، لكنه ما لبث أن استوقفتنا حادثة ذكرها أثناء تواجده في المدينة وهي " قيام عدة من الأشقياء بسرقة داخل جامع اليهود- حسب وصفه - وأخذت جميع الفضة التي كانت بها أسفار التوراة. وقناديل الفضة وصندوقاً به عشرة آلاف قرش كانت موضوعة فيه... ثم مزقت الكتب"<sup>(10)</sup>.

من خلال ما ذكر نستشعر أن الرحالة أراد توضيح أمرين هما:

- أولهما: انعدام الأمن والأمان داخل مدينة مصراتة.
- ثانيهما: هناك علاقات سيئة بين اليهود وأهالي المدينة، والدليل قيام بعضهم بهذه السرقات والأعمال. ولكن تعقياً على ما سبق يمكن القول:
- فيما يخص الأمر الأول فقد يكون بعيداً بعض الشيء عن الصحة؛ لكون عديد من الرحالة يؤكدون وجود الأمن والأمان داخل المدينة، فمثلاً نجد الرحالة الفرنسي ماتوزيو الذي زار مدينة مصراتة بعد فترة زمنية قريبة من زيارة الحشائشي لها يظهر نوع من الاستعراب والتعجب لإيراد الحشائشي هذه الحادثة، وأكد " أن الوضع الأمني مستقر وأهلها عكس ذلك ولم ير منهم إلا ما يرضي"<sup>(11)</sup>.
- وقد يكون سبب هذه السرقة تردي الأوضاع الاقتصادية لبعض أهالي مصراتة وخاصة الوافدين من المدن المجاورة مثل غريان والجبل وتاورغاء " الذين فقدوا أراضيهم بسبب سياسة حكومة طرابلس آنذاك التي تقوم على إجبارهم بدفع ضرائب عدة عن أراضيهم"<sup>(12)</sup> مما جعل معظم أهلها من الوافدين على حافة الفقر، وخاصة أنه في حال عجزهم عن الدفع تتحول أراضيهم إلى أراضٍ تابعة لحكومة طرابلس، وقد يكون من قام بالسرقة بعض الوافدين بالتعاون مع بعض الأهالي الذين طالهم الضرر، وخاصة أن العياشي ذكر في رحلته أن المناطق المحيطة بطرابلس تكثر فيها السرقات " وأهلها أعلم الناس باستعمال الحيل"<sup>(13)</sup>.
- أنه لم يكن الهدف من هذا العمل السرقة في حد ذاتها، إنما كان نكاية في اليهود، وذلك لأن الأسر اليهودية كانت تقوم بالمضاربة التجارية وتستغل فقر بعض الأهالي، الأمر الذي يضطرهم إلى رهن أراضيهم ومنازلهم وذلك لتكالب هذه الأسر اليهودية عليهم من جهة، وحكومة طرابلس آنذاك من جهة أخرى.

(1) حيث وردت في رحلة الحشائشي بهذه الصورة، في حين أنها ذكرت أيضاً برسم الصاد والطاء (مصراطه) يُنظر: العبدري، محمد بن محمد البيلنسي، الرحلة المغربية، تق: سعد بوقلاقي، منشورات بونة، الجزائر، 2007م، ص131.

(2) الحشائشي، مصدر سابق، ص 101.

(3) نفسه.

(4) العبدري، المصدر السابق، ص 131-132.

(5) الإسحاقي، محمد الشرقي بن الطيب، أمير مغربي في طرابلس الغرب (1143هـ/1731م)، تح: عبد الهادي التازي، (د.ت)، (د.م)، ص156.

(6) نفسه.

(7) الحشائشي، المصدر السابق، ص 101، 104.

(8) العبدري، المصدر السابق، ص131.

(9) الحشائشي، المصدر السابق، ص101.

(10) نفسه، ص103.

(11) ماتوزيو، رحلة إلى طرابلس وبرقه (1901 و1903 و1907)، تر: جمعة المحفوظي، جامعة قاريونس، بنغازي، 2007، ص101.

(12) جيمس ريتشارد سن، ترحال في الصحراء، تر: الهادي أبو لكمة، جامعة قاريونس، بنغازي، 1993، ص575.

(13) العياشي، عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية ( ماء الموائد)، تح: سعيد الفاضلي وآخر، دار السويدي، أبو ظبي، 2006، ص177.

## خامساً: الحياة الاقتصادية في مصراتة من خلال الرحلة:

من خلال ما دونه الحشائشي من مشاهدات عن مدينة مصراتة أثناء فترة زيارته لها، نقل لنا صورة حية عنها، مكنتنا أن نستقي منها مادة تاريخية اقتصادية مهمة عن هذه المدينة، والوقوف على أوجه النشاط الاقتصادي فيها والمتمثلة في:

### 1. الزراعة:

عرف أهالي مدينة مصراتة الزراعة منذ وقت مبكر، وساعدهم على ذلك جودة أراضيها وخصوبتها وكثرة المياه فيها، فضلاً عن معرفتهم الجيدة بفلاحة الأرض، فقد أشار الحشائشي إلى براعة أهلها في خدمة أراضيهم والعناية بها وتهيئتها؛ لضمان جودة إنتاجها وذلك بتقليبها عدة مرات حتى تصبح "كالحرير الناعم"<sup>(1)</sup>؛ تمهيداً لزراعتها بمختلف أنواع المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير والغلل والفواكه والزيتون، فضلاً عن بساتين النخيل التي تنتشر بشكل واسع وكبير في هذه المدينة<sup>(2)</sup>.

### 2. الصناعة:

كانت الصناعة في مدينة مصراتة كما ذكرت الرحلة، ذات طابع تقليدي فهي تعتمد على المنتجات الزراعية والحيوانية المتوفرة في المدينة، بذلك كانت معظم الصناعات تحويلية بسيطة مثل استخراج الزيت والرب والسمن، فنظراً لكثرة أشجار الزيتون، بالإضافة إلى اهتمام الأهالي بها كانت تنتج أجود أنواع زيت الزيتون<sup>(3)</sup> الذي يستخرج منه منه في الغالب عدة أنواع من السمن، الذي يحظى دوره بالقبول سواء في السوق المحلية أو التصدير لصفائه وحلاوته وطيبته<sup>(4)</sup>.

تميزت مدينة مصراتة بإنتاجها للتمور، رغم أنه يعتبر متوسط الجودة مقارنة بالمدن الليبية الأخرى وخاصة الجنوب؛ لكنه يشكل الأساس في حياة سكان أهل المدينة ونشاطهم الاقتصادي المحلي<sup>(5)</sup>. كما اشتهرت المدينة أيضاً بصناعة السجاد، ووجدت هذه الصناعة رواجاً كبيراً؛ وذلك راجع إلى توفر مساحات واسعة للرعي مخصصة لتربية الحيوانات، التي تعتبر المصدر الرئيس للحصول على الصوف، الذي يصدر على شكل جزاز لسد احتياجات السوق المحلية<sup>(6)</sup>، وكان من أهم تلك الصناعة "المرقوم الجيد"<sup>(7)</sup> الذي اشتهرت اشتهرت به مدينة مصراتة، وكان العديد من سكان المدن المجاورة لها يرتادون أسواقها طلباً لشرائه، وذلك لما تميز به من إتقان وجودة، فضلاً عن تعدد استخداماته<sup>(8)</sup>.

### 3. التجارة:

بما أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه<sup>(9)</sup>، فهو بحاجة إلى غيره لاقتناء حاجته الضرورية، فكانت المقايضة وتبادل وتبادل السلع أساس عمليات البيع والشراء على مر العصور، حيث عرف ابن خلدون التجارة بقوله: "إنها محاولة لكسب وتنمية المال بشراء بالرخص وبيعها بالغلاء"<sup>(10)</sup>. الأمر الذي يحقق للبائع والشراء قدر معين من الربح بطبيعة الحال.

### أ. التجارة الداخلية:

تطرق الحشائشي في رحلته إلى التجارة الداخلية والخارجية، وأشار إلى تنوع البضائع والسلع داخل مدينة مصراتة، "لأن أهلها كلهم تجار أصحاب جد واجتهاد"<sup>(11)</sup>، مما أدى إلى ظهور عدة أسواق، جسدت عصب الحياة الاقتصادية داخل المدينة، وكانت حلقة اتصال وتواصل بينها وبين المدن المجاورة لها.

(1) الحشائشي، مصدر سابق، ص 101.

(2) نفسه.

(3) مؤلف مجهول، الصناعات التقليدية الليبية، ط2، دار الأنيس للطباعة، مصراتة، 2008، ص 30-34.

(4) الحشائشي، المصدر السابق، ص 101.

(5) نفسه.

(6) ماتوزيو، مرجع سابق، ص 100.

(7) سمي بذلك لاحتوائه عدة نقوش وزخارف مرقومة تعرف بالنقشة، ويعتبر من أطول الأغطية والمفروشات ويتراوح طوله بين 46 أمتار والعرض متران ويحاك بواسطة النوال وتظهر فيه النقوش بأشكال هندسية وألوان زاهية. يُنظر: سالم السني قشوط، دراسة للوحدات الزخرفية في الفن الشعبي الليبي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلوان، كلية التربية الفنية، 1997م، ص 86.

(8) يُنظر: الحشائشي، مصدر سابق، ص 102.

(9) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار الفكر العربي، بيروت، 2001، ص 54.

(10) المصدر نفسه، ص 494.

(11) الحشائشي، المصدر السابق، ص 102.

## I. الأسواق:

وقبل الحديث عن أهم أسواق المدينة، نعرف السوق كما جاء عند ابن منظور "هو موضوع البياعات، والجمع أسواق، وتسوق القوم إن باعوا أو اشتروا"<sup>(1)</sup>.

تعتبر الأسواق من المرافق الحيوية والأساسية لأي مدينة، وتبرز أهميتها في كونها مجالاً لتبادل السلع والقيام بعمليات البيع والشراء، تعددت أنواع الأسواق، ولكن من الملاحظ أن أسواق مصراتة كانت أسبوعية، تقوم داخل المدينة ويؤمها أهلها، وسكان المدن المجاورة لها من طرابلس، ورفلة، وترهونة، وزليتين، والجبل، والخمس، والساحل وغيرها<sup>(2)</sup>.

ومن أهم هذه الأسواق:

- **سوق الأحد:** من أكبر أسواق المدينة، وهو سوق أسبوعية، يعقد يوم الأحد من كل أسبوع، ويكثر زواره في فصل الربيع من كل سنة<sup>(3)</sup>، فيجتمع فيه أعداد كبيرة من مختلف المدن الليبية، فقد ذكر الحشائشي، أن بعضهم "ينكب مسافة السير لمدة خمسة أيام أو أكثر"<sup>(4)</sup>. ومن أهم منشآت هذا السوق:
- **الدكاكين:** وهي شبه حجيرات متفاوتة في السعة، لا نوافذ لها، تحيط في الغالب بزقاق واسع بعض الشيء، وتكون مرتفعة أحياناً على الشارع الرئيس عدة سننيمترات، وأرضها تكون من الطين ومغطاة أحياناً بحصير<sup>(5)</sup>، ويتم إقفالها بمصراعين خشبيين مثبتين بقضيب حديد يعلق بقفل، وتكون في الغالب ملك لليهود<sup>(6)</sup>، وتباع فيها الحاجيات الأساسية كالقمح والشعير والحب، وتتم عملية البيع عن طريق رهن الرباع<sup>(7)</sup> والعقار في أغلب الأحيان، ويغلب عليها النظافة والتنظيم<sup>(8)</sup>.
- **السُوَيْفَة:** وهي تصغير للسوق، وسميت بذلك لأن البضائع تجلب إليها وتساق منها<sup>(9)</sup>، وهي تجارة تختص ببيع الحاجيات اليومية مثل: السمن الجيد الصافي... والعسل المصفى والزيت الحلو والدجاج والبيض، كما تخرج من مدينة مصراتة إلى طرابلس العديد من أنواع الصيد البري كالحم الغزال، والأرانب، والحجل وغيرها، ويكون البيع فيها بالتجزئة فقط<sup>(10)</sup>، ومن أشهرها "سُوَيْفَة مذكور في مسرارة"<sup>(11)</sup>.
- **الرحبة:** مصطلح الرحبة عادة ما يطلق على المكان المخصص لبيع كل أنواع السلع، وكذلك المواشي والحيوانات<sup>(12)</sup>، فقد ذكر الحشائشي أن أسواق مصراتة تعج بمختلف أنواع الحيوانات من البغال، والخيل، والجمال، والبقرة، والغنم، والمعز<sup>(13)</sup> فضلاً عن وجود رحبة خاصة بالحبوب لكثرة إنتاجه في مدينة مصراتة، والذي يصدر أحياناً لأوروبا<sup>(14)</sup>.
- **سوقا الخميس والثلاثاء:** هما سوقان أسبوعيان، يختصان ببيع أجود أنواع السجاد المعروف "بالمرقوم" فمعظم أهالي المدينة يشتغلون في صناعة السجاد لوفرة الصوف فيها<sup>(15)</sup>، فقد كانت جازاز الصوف تخرج من مدينة مصراتة إلى الأسواق المحلية في كل من طرابلس وبنغازي<sup>(16)</sup>.

(1) ابن منظور، مصدر سابق، ج3، ص2154.

(2) الحشائشي، المصدر السابق، ص102.

(3) الحشائشي، مصدر سابق، ص102.

(4) نفسه.

(5) محمد المنتصر، تاريخ مصراتة منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني الثاني، (د.م)، 2002م، ص89.

(6) محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي، رسالة ماجستير منشورة، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الحاج الأخضر، الجزائر، 2014م، ص123.

(7) هو نظام مشاركة بين صاحب رأس المال والمزارع برعب المحصول الذي يتحصل عليه من إنتاج الأرض، فالمزارع يتعهد منذ بداية بداية الحرث حتى الحصاد بالعمل في الأرض مقابل اعتماده على مزرعته في سد احتياجاته، أما صاحب رأس المال فيتكفل بإحضار لوازم الزراعة، ويقسم المحصول إلى أربعة أرباع يأخذ الفلاح الربع والباقي يذهب إلى صاحب رأس المال، يُنظَر: سالم الحجاجي، ليبيا الجديدة، منشورات جامعة طرابلس، طرابلس، 1989، ص196.

(8) الحشائشي، مصدر سابق، ص103.

(9) ابن منظور، المصدر السابق، ج3، ص2154.

(10) الحشائشي، المصدر السابق، ص103.

(11) في حين نجد الإدريسي يذكرها باسم سُوَيْفَة ابن مكنوذ، وهي تبعد عن قصر أحمد مسافة 20 ميلاً. يُنظَر: الإدريسي، محمد بن محمد، نزاهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1989، ص97؛ البرزلي، أبو القاسم بن محمد، جامع المسائل (فتاوى البرزلي)، تح: محمد الحبيب الهيلة، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002، ص534.

(12) أحمد جهان الفورتية وآخر، معهد القوبري الديني، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1999، ص17.

(13) الحشائشي، مصدر سابق، ص102.

(14) نفسه، ص101.

(15) ماتويزيو، مرجع سابق، ص100.

(16) الحشائشي، المصدر السابق، ص102.



## II. أصناف التجار:

نقلت لنا رحلة الحشائشي صورة واضحة جلية عن أنواع التجار في مصراتة خلال تلك الفترة، فقد جرت العادة أحياناً على تصنيف التجار حسب طبيعة النشاط الذي يمارسونه، أو حسب عرقهم وديانتهم<sup>(1)</sup>. وأصنافهم حسب ما ما ورد في الرحلة كما يأتي:

## - الخازن:

ويقصد به التاجر الذي يقوم بشراء السلع وقت توفرها ورخص ثمنها، وكثرة بائعيها، وينتظر في العادة حتى تقل هذه السلعة في السوق ويرتفع ثمنها، فيعمد إلى بيعها<sup>(2)</sup>. ويعتبر الزيت والنخيل والقمح والشعير والتمور رغم أنها أنها متوسطة الجودة من السلع التي يحرص أهالي المدينة على تخزينها لوفرتها لديهم<sup>(3)</sup>. وذكر ماتوزيو في رحلته: " أن أهالي مصراتة يقومون بتخزين مؤنتهم من الشعير وغيره في مطامير shios"<sup>(4)</sup> فتبقى المؤن وخاصة الحنطة والشعير "لعام أو عامين لا يدخلها فساد ولا يعتريها تغيير"<sup>(5)</sup>.

وهنا نستطيع القول إن عملية التخزين يقوم بها الأهالي و التجار على حد السواء، وكل حسب هدفه، فعامّة أهالي المدينة لسد احتياجاتهم اليومية حتى موسم الزراعة القادم، في حين التجار للاستفادة من فرق السعر وقلة المعروض في الأسواق للبيع في الأسواق المحلية أو التصدير للخارج.

وقد ذم ابن خلدون هذا التصرف مع بعض التجار، كما أن حكومة المدينة تمنع هذا النوع من الاحتكار الذي يمارسه بعض التجار، وخاصة وقت الأزمات بقوله: "احتكار الزرع، لحين أوقات الغلا مشؤم"<sup>(6)</sup>.

## - الدالين (السماسة):

وهم بمثابة همزة الوصل بين عامة الناس، والتجارة، وأصحاب السلع المختلفة، غالباً ما تكون لهم معرفة بخبايا السوق وأسعاره، وهم بمثابة وكلاء على الباعة في الأسواق<sup>(7)</sup>. وعملهم في الأسواق يتمثل في مناداتهم على السلع التي يعطيها لهم الباعة، والناس يزايدون حتى تقف إلى سعر معين، ويأخذها من يدفع أعلى سعر<sup>(8)</sup>. وكان هؤلاء يتواجدون بكثرة في سوقي الثلاثاء والخميس داخل المدينة<sup>(9)</sup>.

## - اليهود:

أظهرت الرحلة مشاركة لليهود في الحياة الاقتصادية داخل مدينة مصراتة بشكل كبير وفعال، الأمر الذي جعلهم مهيمين على تجارة المدينة بسبب غناهم وكثرتهم فيها<sup>(10)</sup>؛ فقد بلغ عددهم سنة 1846م ما يقارب من خمسين أسرة يهودية، يتمتعون بحقوقهم كافة ومن ضمنها حرية أداء شعائرهم الدينية وحفظ أموالهم<sup>(11)</sup>، وذكر الحشائشي أن جلهم كانوا من أصول تونسية أو جزائرية<sup>(12)</sup>. وهنا نتساءل لماذا؟ والجواب قد يكمن في الأسباب الآتية:

- نظراً لقرب المدن المغاربية من بعضها البعض، وكثرة حركة الاتصال والتواصل فيما بينها؛ كان من الطبيعي استقرارهم في معظم المدن الليبية آنذاك.
- لأنهم يريدون الحصول على الامتيازات الممنوحة الفرنسيين، بسبب الاتفاقيات بينهم وبين الحكومة العثمانية، باعتبار أن أصولهم تونسية أو جزائرية.
- لأن العادة جرت عند ممارسة التجار اليهود للتجارة يدفع العشر في كل بلد يدخلون فيه، بدلاً عن الجزية الأمر الذي عارضه بعض الفقهاء المغاربة فيما بعد "واشترطوا عدم أخذ العشر منهم لأنهم يدفعون الجزية"<sup>(13)</sup>.

(1) نفسه.

(2) أبو الفضل الدمشقي، من علماء القرن السادس الهجري، إشارة إلى محاسن التجارة و غشوش المدلسين فيها، دار صادر، بيروت، 1999، ص 63.

(3) يُنظر: جيمس ريتشارد سن، مرجع سابق، ص 575.

(4) ماتوزيو، المرجع السابق، ص 100.

(5) الإدريسي، مصدر سابق، ص 162.

(6) ابن خلدون، المقدمة، ص 497.

(7) ألونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب، ج 5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 38.

(8) نفسه، ص 39.

(9) الحشائشي، مصدر سابق، ص 102.

(10) نفسه، ص 103.

(11) جيمس ريتشارد سن، مرجع سابق، ص 575.

(12) الحشائشي، المصدر السابق، ص 103.

(13) البُرزلي، مصدر السابق، ج 2، ص 21.

## - الأوربيون:

فضلاً عما ذكر من تجار، فقد أشارت الرحلة إلى وجود تجار أوروبيين داخل المدينة، فقد ذكر الحشائشي أن هناك تاجراً انجليزياً يمتلك دكاناً داخل مدينة مصراتة، تبايع فيه الحبوب، وكانت تربطه علاقة طيبة بأهالي المدينة وحاكمها، مما يؤكد تسامح أهالي المدينة جلوسهم في الغالب داخل دكانه أثناء ممارسته لعمليات البيع والشراء<sup>(1)</sup>.

## ب. التجارة الخارجية:

لعبت مدينة مصراتة دوراً مهماً في التجارة الخارجية منذ القرن الرابع عشر الميلادي، فقد كان التجار الأوروبيون وخاصة في مدينتي طرابلس و مصراتة يبيعون مصنوعاتهم الزجاجية ومنسوجاتهم كالحرير والأصباغ والتوابل والأسلحة وغيرها؛ في حين كانت تستورد البلدان الأوروبية وخاصة فينيسيا<sup>(2)</sup> من هذه البلدان الزيت والحبوب والجلود والعسل والسجاد والصوف<sup>(3)</sup>.

وضحت الرحلة وجود قافلة تجارية تخرج يوم الجمعة عقب الصلاة في كل أسبوع من مدينة مصراتة، متجهة إلى طرابلس وتكون محملة بمختلف السلع والبضائع المتوفرة في المدينة، لسد احتياجات السوق المحلية<sup>(4)</sup>، ومد القوافل العاملة بين مدينة طرابلس وباقي المدن الليبية؛ بما تحتاجه من مؤن و سلع ومنتجات<sup>(5)</sup>، وليتم تصدير الفائض وخاصة الحبوب عند وفرة المحصول باتجاه أوروبا<sup>(6)</sup> عن طريق ميناء طرابلس<sup>(7)</sup>.

من خلال هذا العرض يتضح لنا أن الحشائشي ذكر رحلة تجارية واحدة تخرج من المدينة، وكان هدفها سد احتياجات السوق المحلية فقط، ولم يشر في رحلته إلى مرسى قصر أحمد ودوره في الحركة التجارية الخارجية، رغم أنه زار مصراتة قرابة سنة 1896م، حيث كانت الحركة التجارية نشطة من خلال هذا المرسى، فقد ذكر جيمس ريتشارد سن في رحلته هذا الميناء عند زيارته للمدينة رغم كون رحلته سابقة لرحلة الحشائشي (1845-1846م) بقوله: " يعقد سوق مصراتة ثلاث مرات في الأسبوع... أما الميناء الرئيسي فيبعد بحوالي ثلاث ساعات عن القرية الرئيسية"<sup>(8)</sup>.

وقد أشار ابن سعيد إلى هذا المرسى أثناء رجوعه إلى بلده، وذكر أن المركب الذي استقله توقف مدة في قصر أحمد بقصور مسراته، ونزل به عدد من الركاب لمواصلة سيرهم برأ، في حين قام بإكمال سفره على طريق البحر<sup>(9)</sup>؛ كما أشار كل من البكري والإدريسي إلى هذا المرسى ودوره في حركة التجارة، رغم أنهما لم يذكرهما باسم " قصر أحمد" إنما ذكراه باسم " رأس قانان أو طرف قانان"<sup>(10)</sup>.

كما ذكر محمد ناجي حركة التجارة الخارجية النشطة في المدينة، فيصف المدينة قرابة سنة 1907م، وهي فترة زمنية قريبة من رحلة الحشائشي بقوله: " وهي مدينة تأتي بعد طرابلس في العمران والرواج التجاري...، وتتمر به البواخر مرتين في الأسبوع، وتجارها كانت رائجة مع مالطا والإسكندرية أيضاً"<sup>(11)</sup>.

مما لا شك فيه أن المدينة لعبت دوراً مهماً في حركة التجارة الخارجية مع البلدان الأوروبية وكذلك الأقطار العربية منذ وقت مبكر، لكن عدم التعرض لذكرها عند الحشائشي قد يرجع إن وصوله إلى لمدينة تزامن مع خروج هذه القافلة فقط، فما لبث أن دونها دون التعرض لتفاصيل كثيرة عنها.

(1) الحشائشي، مصدر سابق، ص 103-104.

(2) ماتويزيو، مرجع سابق، ص 34.

(3) يُنظر، نفسه، ص 100-101.

(4) الحشائشي، المصدر السابق، ص 102.

(5) ماتويزيو، المرجع السابق، ص 101.

(6) الحشائشي، المصدر السابق، ص 101.

(7) ماتويزيو، المرجع السابق، ص 195.

(8) جيمس ريتشارد سن، مرجع سابق، ص 574.

(9) ابن سعيد المغربي، علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1970، ص 146.

(10) البكري، عبد الله بن عبد العزيز، المسالك والممالك، تحق: أدريان فان، أندري فيري، ج2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992م، ص 670، الإدريسي، مصدر سابق، ص 311.

(11) محمد ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، تر: عبد السلام أدهم، محمد الأسطى، ط2، دار الفرجاني، طرابلس، 1995، ص 30.

## الخاتمة:

تعد رحلة الحشائشي مصدراً تاريخياً مهماً للتأريخ لمدينة مصراتة، فقد تحدثت عن الحياة الاقتصادية وكذلك الثقافية بشكل جيد، لكنها كانت أشبه بمذكرات أو يوميات دونها الرحالة دون الاستعانة أو الرجوع بكتب ومصادر بعض المؤرخين من أهلها، مما جعل مشاهداته تنقصها الدقة والتوضيح أحياناً ومثاراً للنقد والتشكيك أحياناً أخرى، وعلى الرغم من قصر الرحلة وإيجازها، وعدم إسهاب مؤلفها في ذكر التفاصيل الدقيقة عن الحياة الاقتصادية داخل المدينة، مما جعلها تعاني بعض جوانب القصور مقارنة بالمدن الأخرى المذكورة في رحلته، إلا أنه من خلال استنطاق مادتها المصدرية والنصوص التاريخية التي تحويها، وجد أنها تعج بكم من المعلومات المهمة والتي نجحت في إعطائنا صورة كاملة عن مختلف الأنشطة الاقتصادية في المدينة فهي بذلك:

- رسمت صورة واضحة حية عن الحركة التجارية للقوافل وأهم السلع والبضائع والمنتجات الصادرة والواردة إلى المدينة والخارجة منها وعلاقتها ببعض الدول الأوروبية.
- رصدت الرحلة تنوع الحياة الاقتصادية داخل مدينة مصراتة، وعكست صورة واضحة جلية عن حياة سكانها (أهلها) الزراعية والصناعية والتجارية، وعاداتهم ومأكلهم ومشربهم، وعلاقاتهم، وانطباعاتهم.
- بينت الرحلة التفاعل الحادث والتداخل بين أهل المدينة، بوصفهم من الناحية الأخلاقية والاقتصادية وتسامحهم مع العناصر الأخرى المستقرة بالمدينة، فرسمت لنا ثقافة الأخر والانفتاح عليه.
- قدمت تفاصيل دقيقة عن أصناف التجار المتواجدين في المدينة وما تمتعوا به من حقوق داخل المدينة، فضلاً عما حظوا به من تسامح من أهلها، وأمدتنا بمعلومات عنهم وأنظمتهم في البيوع والمعاملات التجارية.
- أظهرت الرحلة وجود بعض الأسواق الأسبوعية المتنوعة، التي نعمت بنوع من الازدهار والاتساع، فلم تكن هذه الأسواق مقصداً لسكانها فقط، إنما مقصداً لجميع سكان المدن المجاورين لها، مما ترتب عنه إنعاش حركة التجارة الداخلية بين مدينة مصراتة وباقي مدن الساحل الغربي والأوروبي فيما بعد.
- نقلت لنا صورة عن أحوال المدن الليبية أثناء السيادة العثمانية عليها، كما وضحت النظام العمراني السائد في المدينة، التي تميزت بنمط العمارة الأوروبية الرومانية.

## قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية قالون عن نافع.  
أولاً: المصادر:
- الإسحاق، محمد الشرقي بن الطيب ت(1150هـ/1738م)، أمير مغربي في طرابلس الغرب(1143هـ/1731م)، تحقيق: عبد الهادي التازي، (د.م)، (د.ت).  
-الإدريسي، محمد بن محمد ت(560هـ/1166م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1989.
- البرزلي، أبو القاسم بن محمد ت (841هـ/1438م)، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام (فتاوي البرزلي)، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.  
-ابن بطوطة، محمد بن عبدالله ت (779هـ/1369م)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأسفار وعجائب الأمصار)، تحقيق: محمد العريان، دار أحياء العلوم، بيروت، 1987.  
-البكري، عبد الله بن عبد العزيز ت (487هـ/1094م)، المسالك والممالك، تحقيق: أدريان فان، أندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999.  
-التجاني، عبد الله بن محمد ت (727هـ/1327م)، رحلة التجاني، تقديم: حسن عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.  
-ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي ت (852هـ/1449م)، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، دار الفكر، (د.م)، (د.ت).
- الحشاشي، محمد بن عثمان ت (1330هـ/1912م)، رحلة الحشاشي إلى ليبيا ( جلاء الكرب عن طرابلس الغرب)، تحقيق: علي مصطفى المصراطي، دار لبنان، بيروت، 1965.  
-الحميري، محمد بن عبد المنعم ت (900هـ/1500م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975.  
-الخطيب البغدادي، أحمد بن محمد ت (463هـ/1070م)، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1975.  
-ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت (808هـ/1405م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الجيل، بيروت، (د.ت).  
- \_\_\_\_\_، المقدمة، دار الفكر العربي، بيروت، 2001.  
-الدمشقي، أبو الفضل (من علماء القرن السادس الهجري)، الإشارة إلى محاسن التجارة و غشوش المدلسين فيها، دار صادر، بيروت، 1999.  
-ابن سعد، محمد بن سعد ت (230هـ/844م)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.  
-ابن سعيد المغربي، علي بن موسى ت (673هـ/1274م)، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1970.  
-العبدري، محمد بن محمد الحاحي البننسي ت (725هـ/1325م)، الرحلة المغربية، تقديم: سعد بو فلاقة، منشورات بونة، الجزائر، 2007.  
-العياشي، عبد الله بن محمد ت (1090هـ/1679م)، الرحلة العياشية ( ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضلي وأخر، دار السويدي، أبو ظبي، 2006.  
-الغزالي، محمد بن محمد ت(505هـ/1111م)، إحياء علوم الدين، ج6، دار المنهاج، السعودية، 2011.  
-ابن فارس، أحمد بن فارس ت (395هـ/1004م)، معجم المقاييس، تحقيق: عبد السلام هارون، ج2، دار الفكر، (د.م)، (د.ت).1.
- المكناسي، محمد بن عثمان ت (1214هـ/1799م)، الإكسير في افتكاك الأسير، تحقيق: محمد الفاسي، منشورات مركز الجامعة، الرباط، 1965.
- ابن منظور، محمد بن مكرم ت (711هـ/1311م)، لسان العرب تحقيق: محمد حسب الله، هاشم الشاذلي، ج3، دار المعارف، الإسكندرية، 1997.
- الونشريسي، أحمد بن يحيى ت (914هـ/1514م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
- ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله ت (626هـ/1228م)، معجم البلدان، تحقيق: فريد الجندي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

## ثانياً: المراجع العربية:

- أحمد جهان الفورتية وآخر، معهد القويري الديني، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1999.
- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1977.
- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ط/2، دار الأندلس، بيروت، 1983.
- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، 1989.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط/13، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، 1998.
- رجب نصير الأبيض، طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، المركز الوطني للمحفوظات، طرابلس، 2009.
- زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار راند، بيروت، 1981.
- سالم الحجاجي، ليبيا الجديدة، منشورات جامعة طرابلس، طرابلس، 1989.
- صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ط/2، دار المعارف، الإسكندرية، 1999.
- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعيدية، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006.
- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).
- محمد المنتصر، تاريخ مصراتة منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني الثاني، (د.م)، 2002.
- محمد ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، تر: عبد السلام أدهم، محمد الأسطى، ط/2، دار الفرجاني، طرابلس، 1995.
- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.
- مؤلف مجهول، الصناعات التقليدية الليبية، ط/2، دار الأنيس للطباعة، مصراتة، 2008.
- مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال الرحلات المغاربة، ط/2، الشركة الوطنية، الجزائر، 1981.
- نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، تقديم: صلاح جرار، دار المأمون، عمان، 2008.
- نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962.

## ثالثاً: المراجع المعربة:

- جيمس ريتشارد سن، ترحال في الصحراء، ترجمة: الهادي أبو لقمة، جامعة قاريونس، بنغازي، 1993.
- ماتويزيو، رحلة إلى طرابلس وبرقة، ترجمة: جمعة المحفوظي، جامعة قاريونس، بنغازي، 2002.

## رابعاً: الدوريات والمجلات والرسائل العلمية:

- بطرس البستاني، دائرة المعارف، مج 8، مؤسسة مطبوعاتي، طهران، (د.ت).
- سالم السني قشوط، دراسة للوحدات الزخرفية في الفن الشعبي الليبي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلوان، كلية التربية الفنية، 1997.
- محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي، رسالة ماجستير منشورة، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الحاج الأخضر، الجزائر، 2014.
- نقولا زيادة، "الحشاشني ورحلته إلى ليبيا"، العربي، العدد 168، نوفمبر، 1972.